

انسانيا . لذا لا يعود « خروج » محمود درويش من الارض المحتلة هو المحك لقياس شاعريته ، بل المحك هو في استمرارية تجربة الشاعر النضالية ، وفي ارتفاع شعره فنيا . فيغدو تقويمنا لقضية خروج الشاعر معتمدا على هذين العنصرين اللذين هما في حقيقتهما وجهان لحقيقة واحدة . فتصبح عودتنا الى نتاج محمود درويش الشعري أساس حكمنا عليه ، فننظر كيف أثرت الفترة التي عاشها خارج الارض المحتلة في تجربته النضالية ، وكيف تجلت هذه التجربة في صورتها الفنية ؟ وهل يشكل ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » ، الذي كتب قصائده بعد خروجه ، تطورا في مسيرته الشعرية ؟ وكيف ؟

انبثقت تجربة محمود درويش النضالية والفنية من قضية طرحها بقوله : « كيف أوفق بين شق الطريق أمام الكلمة لتمارس مفعولها بين الجماهير بصفقتها كلمة ثورية من ناحية ، وبين متطلبات الشروط الفنية المتطورة لهذه الكلمة ؟ » (١٩) . هنا يطرح الشاعر قضية الالتزام في الادب : فالشاعر المتزعم يسعى الى ايصال نتاجه للجماهير شرط الا يضحى بالمستوى الفني لهذا النتاج . كيف عالج محمود درويش هذه القضية ، وكيف تطورت نظرته اليها خلال مسيرته الشعرية ؟

تقع مسيرة محمود درويش الشعرية ، على ما أرى ، في مراحل ثلاث : تشمل الاولى الفترة التي سبقت حرب حزيران . وتمتد الثانية في السنوات التي تلت الحرب وحتى فرار الشاعر بالخروج نهائيا من فلسطين المحتلة . وتتمثل الثالثة - التي تمتد حتى اليوم - في المدة التي قضاها خارج الوطن المحتل ، وجاء ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » صورة عنها .

أصدر محمود درويش في المرحلة الاولى مجموعات شعرية ثلاث هي : « عصافير بلا أجنحة » عام ١٩٦٠ ، و« أوراق الزيتون » عام ١٩٦٤ ، و« عاشق من فلسطين » عام ١٩٦٦ . وشهدت هذه المرحلة انضمام الشاعر الى الحزب الشيوعي في عام ١٩٦١ ، بعد أن قرأ مبادئ الماركسية وتأثر بها : « وصرنا نقرا مبادئ الماركسية التي اشعلتنا حماسا وأملا ، وتعمق شعورنا بضرورة الانتماء الى الحزب الشيوعي الذي كان يخوض المعارك دفاعا عن الحقوق القومية ودفاعا عن حقوق العمال الاجتماعية . وحين شعرت اني أملك القدرة على أن أكون عضوا في الحزب دخلت اليه في عام ١٩٦١ ، فتحددت معالم طريقي وازدادت رؤيتي وضوحا وصرت أنظر الى المستقبل بثقة وإيمان . وترك هذا الانتماء آثارا حاسمة على سلوكي وعلى شعري » (٢٠) .

ولكن التزام الشاعر سبق انضمامه الى الحزب الشيوعي ، إذ انعكس هذا الالتزام في ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » الصادر قبل سنة من تاريخ انتماء الشاعر الحزبي . وقد عبر محمود درويش في هذا الديوان عن تجربة هي وليدة « الحب .. والعذاب .. والكفاح .. والثورة .. والالام .. والنداء المبجوح القادم من البعيد .. من البعيد .. » (٢١) فأختص جانبا من قصائد الديوان بالقضية النضالية ، وأفرد الشاعر الجانب الأكبر من قصائده للغزل . وظلت قصائد الديوان ، وبخاصة ما ارتبط منها بالقضية النضالية ، خطابية مباشرة ، التزم فيها الشاعر عمود الشعر الكلاسيكي ، كقوله مثلا :

وحينني في عروقي يتضخم !
الطيق الصمت والام تالم !
ايها الافق الذي حولي تضم
قد تعاهدنا على ان نتقدم !

لا تلمني ! اشعل الحقد دمي
لا تلمني انها ارضي تبكي
انها أمي ولا امرئها
انا جيل لست وحدي فائرا

لكن الانتماء الحزبي انتقل بالشاعر ، على حد تعبيره ، من « سمة (الثوري الحالم)